حضور المرأة المغربية في كتابات الرحالة المغاربة:

"قراءة أولية"

الباحث مجيد هلال

المغرب

ملخص :

إن اللافت في كتابات الرّحّالة المغاربة هو غياب المرأة المغربية ضمن هذه النصوص، إذ أقل ما يقال في هذا الشأن، أنه حضور جد محتشم لمعطيات تشمل هذه الفئة من المجتمع المغربي، في المقابل فهناك حضور قوي لفئة النساء من غير البلاد المغربية ضمن هذه المؤلفات الرحلية، هذا الحضور الباهت الذي يزداد أكثر عندما يقصد الباحث في بحثه جوانب من التاريخ الاجتماعي وتاريخ الذهنيات والأفكار في ارتباطه بالمرأة المغربية، هو غياب يمكن أن يُعزى لعوامل وأسباب متعددة، تختلف من رحالة لآخر.

لذلك سنحاول من هذه الورقة تسليط الضوء على إشكالية الحضور الباهت للمرأة المغربية في نصوص الرحالة المغاربة، من خلال منهج وصفي تحليلي وتفسيري ، يتناول بالدراسة بعض النماذج من الرحالة المغاربة، ونخص بالذكر هنا الرحالة "ابن بطوطة"، محاولين الوقوف عند الأسباب والعوامل التي حالت دون اهتمام هؤلاء الرحّالة بالمرأة المغربية.

الكلمات المفتاح: المرأة المغربية، الرحالة المغاربة، التاريخ الاجتماعي، تاريخ الذهنيات.

Summary :

What is strikings of moroccan travelers is the absence of moroccan women among these texts. The least that can be said on this subject is the weak presence of data that includes this category of moroccan society. On the contrary ; we find the presence of the category of women from other than moroccan countries within these travler writings, this weak presence is increasing more when the researcher seeks in his research to delve into some aspects of social history and wath is related to the history of mentalities and ideas related to Morocan women, this absence is justified by reasons and factors that may differ from one traveler to another.

Therefore, we will try in this paper to shed light on the problem of the lackluster presence of moroccan women in the texts of moroccan travelers, through a descriptive, analytical and interpretive approach, examining some examples of Moroccan travelers, and we mention here the traveler "Ibn Battuta", trying to determine the reasons and factors that made women absent moroccan from the writings of these travelers.

Keywords : moroccan women – moroccan travelers – social history – history of mentalities and ideas.

إنّ محاولة البحث عن معطيات تَخُصُّ المرأة المغربية وما يوثق لتاريخها بالاستناد إلى مصادر رحلية تعود لرحّالة مغاربة وفي مختلف الفترات من تاريخ المغرب، فإن أول ما يثير انتباه البحث والقارئ لهذه النصوص هو ذلك الحضور الباهت لعنصر المرأة المغربية داخل هذه المتون الرحلية، وبالتالي تغيب المادة التي يمكن من خلالها التأريخ لحياة وأحوال هذه الفئة من المجتمع وما يرتبط بها، باستثناء بعض المعطيات القليلة جدا في بعض المؤلفات، في حين تبقى غالبية النصوص الرحلية المغربية تغيب فيها تماما هذه الفئة، بل الأكثر من ذلك فإن المغرب والمغاربة بصفة عامة لم تتناوله هذه النصوص بالشكل الكافي والمستفيض، كما هو الشأن مثلا مع الرحالة "ابن بطوطة"[1] وغيره، إذ "لم يحتل المغرب سوى خمس صفحات من رحلة العبدري، وليس أكثر من ذلك في رحلة ابن بطوطة".[2] وما يُسَجَّل من ملاحظات حول بعض النصوص الرحلية المغربية أنها إن لم تعط ذلك الاهتمام الكبير للمرأة من داخل المغرب، ففي المقابل نجدها قد أَوْلت عناية كبرى لذكر أخبار وأحوال المرأة من بلدان وبقاع أخرى زارها هؤلاء الرحالة المغاربة، وهنا على سبيل المثال نذكر الرحالة المعروف "ابن بطوطة" خلال القرن الرابع عشر الميلادي، الذي لمع اسمه في سماء الرحلات الاسلامية والعالمية ككل ولُقّب بأمير الرحالة المسلمين، وإنّ كتابه " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" شاهدٌ على ما حققه هذا الرحالة وما ميّزه عن غيره، فالقارئ لنص رحلته، يجده من النصوص التي ترحل به بين دروب مواضيع مختلفة وأمصار متعددة، تعكس ما كان يوليه الرحالة اهتماما بالغا، ورَوَاهُ بكل تفصيل، وبالنسبة لموضوع المرأة، فاللافت للانتباه في هذا الشأن، هو ذلك الاهتمام الكبير الذي أعطاه ابن بطوطة لعنصر المرأة الأجنبية، في مختلف البلدان التي شملتها رحلته، إلى غاية بلاد الصين، واصفا أحوالها وسلوكها، وكذا هيئتها و عاداتها، من مختلف الفئات سواء من العامة أو الخاصة من النساء، مما جعل نصه الرحلي نصا زاخرا بالمعطيات والمعلومات التي تخصّ المرأة من خارج المغرب، بل الأكثر من ذلك، فإن ما يعكس ذلك الحضور القوي لعنصر المرأة الأجنبية في رحلة ابن بطوطة، هو ما كان يرويه عن زواجه المتكرر لعدة مرات بنساء من مختلف المناطق التي استقر بها ابن بطوطة، فقد كان " رجلا مِزواجا اقترن بعدد كبير من النساء حتى غدا ذلك أمرا مشهورا عنده"[3]، هذا بالإضافة إلى ارتباطه بالجواري، وهو ما يتبثه في نصه الرحلي، عندما يتحدث عن زوجاته، فقد ذكر أنه "كان له جوارٍ كثيرة سواهن"[4]، وبالتالي فقد كان قريبا من الحياة النسوية، على عكس باقي الرحالة المغاربة الآخرين، سواء الذين سبقوه أو ممن جاؤوا بعده، فهو على سبيل الذكر لا الحصر قد تزوج بأربع زوجات من جزر المالديف لما وصلها واستقر بها مدة معلومة، وفي ذلك يذكر قائلا:" وقد كان لي بها أربع نسوة"[5]، ومن الأسباب التي يفسّر بها ابن بطوطة إعجابه بنساء هذه المناطق ما يتصفن به من عادات وأعراف تُسَهل الزواج وتُحَبّبُهُ، وفي ذلك يورد في نص رحلته بأن" التزوج بهذه الجزائر سهل، لنزارة الصداق، وأكثر الناس لا يسمي صداقا، وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء، فإذا أرادو السفر طلقوهن، وذلك نوع من زواج المتعة"[6]، ولعل فيما يذكره ابن بطوطة ما يوحي إلى بعض الخصائص الثقافية والعُرفية لهذه المجتمعات و ما يميز وضعية المرأة داخلها، كما لم يتوان هذا الرحّالة في وصف جمال المرأة بكثير من البقاع التي لم يخْفِ فيها إعجابه بجمال نسائها، وفي هذا المقام نسوق مثلا ما وصف به نساء إحدى مدن اليمن، إذ " لنسائها الحسن الفائق الفائت"[7] ، بل الأكثر من ذلك والأعجب في الأمر، أن ابن بطوطة وصل به الأمر في وصف النساء و الإعجاب بهن درجة وصف لبعض الأمور الجنسية التي ترتبط بالجماع علاوة على وصف جسم وملامح المرأة، و في هذا الصدد نضع ما وصف به نساء "المرهتة" فيصف قائلا: " وأهل بلاد دولة آباد هم قبيل المرهتة الذين خصَّ الله نساءهم بالحسن، وخصوصا في الأنوف والحواجب، ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس في غيرهن"[8] كما وصف نساء إحدى مناطق ليبيا قائلا بأن: " نساؤهم أتم النساء جمالا وأبدعهن صورا، مع البياض الناصع والسِّمن، ولم أر في البلاد ما يبلغ مبلغهن من السمن، وطعامهن حليب البقر، وجريش الذرة، يشربنه مخلوطا بالماء غير مطبوخ عند المساء والصباح"[9]، كما ذكر عن نساء بلاد تركيا قائلا: " ورأيت بهذه البلاد عجبا من تعظيم النساء، وهن أعلى شأنا من الرجال"[10]. وحديث ابن بطوطة عن النساء لا ينتهي إلا بانتهاء نصه الرحلي، فقد كان حريصا على ذكر ووصف أحوال النساء وعاداتهن ومكانتهن في المجتمع في مختلف المناطق التي توجّه إليها، بل كان وصفه أحيانا كما أعطينا بعض

الأمثلة أعلاه وصفا دقيقا و يتجاوز الحدود. لكن هذا الاهتمام الذي أعطاه الرحالة ابن بطوطة للنساء، يغيب بشكل ملفت عندما يتعلق الأمر بالمرأة من داخل المغرب، حيث يظل نصُّهُ يفتقر للمعطيات والتفاصيل التي توثق لحياة وواقع المرأة المغربية، باستثناء بعض المعلومات القليلة حول بعض النساء من بعض القبائل المغربية التي ذكرها في معرض حديثه عن مسار رحلته وخروجه من المغرب، أو في طريقه إلى بلاد السودان الغربي. وهنا تجدر الإشارة إلى أن هؤلاء المغاربة كما رأينا مع نموذج الرحالة "ابن بطوطة" إذا كانت المرأة المغربية قد غابت بشكل كبير في متونهم الرحلية على عكس المرأة الأجنبية سواء من العالم الاسلامي، أو غيرها من المناطق الأجنبية، فإنه في المقابل نجد أن هذا الغياب حاضر أيضا حتى عند الرحالة المشارقة، ممن زاروا المغرب وكتبوا عنه، لذلك " فمن الغريب أن نجد الحجاج والتجار والأندلسيين أو المغاربة لا يهملون تدوين أو ذكر ما شاهدوه في المشرق، خصوصا في مصر وبلاد الدليم، والتركمان وما وراء النهر، بخصوص نساء هذه البلاد والعادات والتقاليد التي استنكروها واعتبروها من الغرائب، ولا نجد مثل هذا الاهتمام من الأندلسيين أو حتى المشارقة الذين زاروا العدوة المغربية"[11]، وهو ما سيزيد من تهميش وغياب المرأة المغربية بأحوالها وتاريخها خاصة من نساء العوام من المغاربة، وكل ما يرتبط بحياتها الاجتماعية، وهذا ما أدى إلى حقيقة اسطغرافية لا غبار عليها، وهو غياب شبه تام لعنصر المرأة المغربية من داخل المصادر الرحلية سواء المغربية أو المشرقية، وبالتالي لا تسمح هذه المصادر بتسليط الضوء على تاريخ المرأة المغربية بالشكل الكافي وفي مختلف الفترات، في حين كان الاهتمام أكثر بالمرأة من خارج المغرب، كما وضحنا مع الرحّالة ابن بطوطة وغيره، أو كما هو الحال مع أولئك الرحالة المغاربة ممن زاروا أوربا تحت ظرف من الظروف، وخير مثال هو ما أوردته الباحثة "مليكة نجيب" في دراستها المعنونة ب " المرأة في الرحلة السفارية المغربية خلال القرنين 18 و19م"، الصادرة عن دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2014، وهي دراسة تدرس صورة المرأة الأوربية في كتابات الرحالة المغاربة، وقد اعتمدت على مجموعة من النصوص، وهي: "نتيجة الاجتهاد، في مهادنة الجهاد، رحلة الغزال وسفراته إلى الأندلس" تأليف أحمد بن المهدي الغزال، و"الإكسير في فكاك الأسير" و"البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر" لمحمد بن المكناسي، و"صدفة اللقاء مع الجديد" لصاحبها أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الصفار، الفقيه العالم بأمور الشرع، و"تحفة الملك العزيز بمملكة باريز" لإدريس بن الوزير سيدي ابن ادريس العمراوي، و"الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية سنة 1806" لأبي الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي. استعانت أيضاً برحلات أخرى سابقة مثل رحلة أفوقاي "ناصر الدين على القوم الكافرين" و"الرحلة الأوروبية" لمحمد بن الحسن بن العربيّ بن محمد الحجوي الثعالبي الجعفري الفلالي الذي زار فرنسا مطلع القرن العشرين. وقد بينت هذه الدراسة تمثلات الرحالة المغاربة للمرأة الأوربية، وانبهارهم من انفتاحها و مشاركتها في الحياة العامة، كما عكست كتاباتهم تلك الذهنية الذكورية التي تفصح عن نظرة دونية للمرأة، كما أنها صورة أيضا ارتبطت بعنصر المقارنة لدى هؤلاء الرحالة بين المرأة المسلمة و غير المسلمة، ما جعل هؤلاء الرّحالة على غير عادتهم يركّزون على المرأة الأوربية ووصفها سلوكا وهيئة، والدافع في ذلك بالنسبة لهؤلاء الرّحالة ما تولّد لديهم من تمثلات وأفكار انطلاقا من مسألة الاختلاف الثقافي بين الناظر والمنظور إليه، والبنية الثقافية ومرجعياتها المتحكمة في بناء تلك الصورة حول المرأة، من هنا كان الاهتمام كبيرا بعنصر المرأة الأجنبية، وهو الاهتمام الذي يظل ضعيفا جدا حتى لا نكاد نجده في كتابات الرحالة المغاربة عندما يتعلق الأمر بالمرأة المغربية وما يخُصّها، على عكس المصادر الرحلية الغربية الأوربية التي تحضر فيها المرأة المغربية وبشكل قوي في بعض النصوص .

ولعل تلك الإشكالية الاسطغرافية التي تطرحها النصوص الرحلية المغربية، لها ما يبررها من الأسباب والدواعي التي فرضت ذلك الغياب الملفت للمرأة المغربية من نصوص هؤلاء الرحالة، وهي أسباب نراها كما يلي:

- تَقَيُّد الرحالة المغاربة بأعراف وثقافة المجتمع المغربي، والتي ترى في الحديث عن المرأة من داخل المجتمع خروج عن نظام الحُرمة الذي حددته الأعراف المغربية للمرأة وعلاقتها بالرجل، ما جعل هؤلاء الرحالة يشكلون امتدادا لهذه الثقافة والنُّظم العُرفية،

وما يؤطّرها من بنية ذهنية مجتمعية، لذلك لم يهتموا كثيرا في مشاهداتهم و نصوصهم بذكر تفاصيل حياة المرأة المغربية، وتجنبوا ذلك احتراما للقواعد التي تنبثق من الثقافة المغربية، في مقابل الاهتمام بعنصر المرأة الأجنبية من بقاع أخرى، كما رأينا مع الرحالة ابن بطوطة، ولعل هذا يُفَسَّرُ بتحرر الرحالة داخل هذه المجتمعات الأجنبية وإن كانت عربية و إسلامية من قيود تلك القواعد العُرفية، ما دام أنه لا يتحدث عن المرأة المغربية وخارج الجغرافية المغربية.

- من الأسباب أيضا التي قيّدت الرّحالة المغاربة في الحديث عن المرأة المغربية، هو تأثير المرجعية الدينية الاسلامية لهؤلاء الرحالة، والتي كانت مُوجِّها قويا لكثير من الرحالة المغاربة في تجربتهم الرحلية ومسارها، ففي كثير من الأحيان كانت هذه المرجعية تَحْصِر اهتمامات الرحالة و مشاهداته في مساحة لا تتجاوز مقتضيات الشرع الإسلامي، ما جعل من نصوصهم لا تتحدث عن حياة المرأة بالشكل المستفيض و بتفصيل الوصف في أحوالها وسلوكاتها وما يرتبط بتاريخها اليومي، وذلك احتراما لقاعدة "غض البصر" و اجتناب ما يعتبرونه من المحرمات، خاصة بعض القضايا و المواضيع المرتبطة بالمرأة، هذه المرجعية التي كانت حاضرة حتى في طبيعة الأوصاف و الظواهر التي تحدث عنها بعض الرّحالة فيما يخص المرأة الأجنبية، وذلك انطلاقا من ثقافة الاختلاف و ما يعتبره الرحالة مخالفا للشرع الاسلامي، فكان هنا الرحالة ينظر للمرأة نظرة فقهية أكثر منه رحالة يكتشف كل غريب وعجيب.
- تجدر الإشارة أيضا، إن من بين الدواعي التي خفّضت من منسوب الحديث عن المرأة المغربية من داخل المتون الرحلية المغربية، وهو من العوامل التي نجدها منطقية و مقبولة، هو اعتقاد الرحالة أن سرد ووصف ما يخص المرأة المغربية من سلوكات وعوائد و كل ما يرتبط بحياتها الاجتماعية والثقافية، يبقى من باب تحصيل حاصل لا غير، ولا فائدة منه، ولا يشكّل بالنسبة لهؤلاء الرحالة ما هو جدير بالكتابة والسرد من العجائبي والغرائبي، ما دامت في نظر هؤلاء أنها تنتمي لنفس جغرافية و ثقافة الرحالة، وبالتالي لا يجد فيها اختلافا كبيرا أو ما يثير دهشته ويحرك لديه قريحة التوثيق والتدوين كما يقوم به عندما يتعلق الأمر بالمرأة من خارج ثقافته و بيئته، انطلاقا مما يشاهده ويكتشفه في مجتمعات ليست بمجتمعه، فالمرأة المغربية هي جزء لا يتجزأ من ثقافة و ومرجعيات الرحالة المغربي، ومن هذا المنطلق لم تحضر بشكل مكثف في متون الرحالة المغاربة، و غابت عن تفكيرهم واهتماماتهم.
- لا ننسى أيضا، نوع و مقاصد الرحلة، كان لها وقْعٌ كبير في إشكالية غياب وتهميش عنصر المرأة المغربية من اهتمامات الرحالة المغاربة، والقصد هنا بالأساس تلك الرحلات الحجية و الصوفية التي قام بها الرحالة المغاربة في مختلف الفترات، و كانت الغاية الكبرى عند هؤلاء الرحالة هي زيارة البقاع المقدسة، واللقاء بالصالحين والأولياء، والتبرك ببركاتهم و الاقتباس من كراماتهم، فالرحلة من هذا النوع هي سفر الأرواح قبل الأبدان، لذلك تجاوزت البعد المادي للسفر نحو بعد روحاني أعمق، يبتغي تطهير القلوب وصفاء الجوارح، والابتعاد عن كل ما يشغل الرحالة عن مناجاة الله و التضرع إليه، وما يفسد قدسية وطهارة هذه السياحة النفسية، ووصْل الأولياء والصلحاء، وعلى هذا الأساس لم يكن عنصر المرأة حاضرا في كتابات واهتمامات هؤلاء الرّحالة، وما يرتبط بها ثقافيا واثنوغرافيا، من أمثال الرحالة " أبو سالم العياشي" الذي "كان شيخا يترأس زاوية والده الدلائية في الأطلس المتوسط، ولذلك كانت رحلته من منطلق صوفي صرْف"[12]. من هنا؛ كان سفر هؤلاء الرحالة المغاربة من المتصوفة، هو سفر وجداني منفصل عن حيثيات الواقع الحسي للرحالة وانشغالاته، وعنصر المرأة والحياة النسوية كان موضوعا متروكا لدى هؤلاء الرحالة، خاصة في تفاصيلها الخاصة ومن فئة العوام، فقد كان همُّ هؤلاء بلوغ درجات الرقي في الإيمان، وإدراك ما لا تدركه العين، خاصة مع تزايد قوة وتأثير الحركة الصوفية في المغرب، التي ستغمر الحياة الدينية وبعض الصيغ الاجتماعية المترتبة عنها انطلاقا من القرن الثالث عشر[13]. فغابت المرأة كموضوع يشغل بال واهتمام هؤلاء الرحّالة.

لكن إذا كانت المصادر الرحلية المغربية قد طبعها ذلك الغياب والتهميش لعنصر المرأة المغربية وما يرتبط بها داخل المجتمع المغربي، واكتفت هذه النصوص ببعض النُّتَف المتناثرة هنا وهناك بين ثنايا تلك المتون، فإن الحديث لا يستقيم ولا يكتمل بدون الوقوف عند نص رحلي شكّل استثناءً، وتميز عن باقي النصوص الرحلية المغربية، الأمر هنا يتعلق بالنص الذي خلّفَهُ الرحالة المغربي " الحسن

الوزان"[14] و المعروف ب " ليون الإفريقي" عبر كتابه المشهور " وصف إفريقيا"، فهو نص رحلي ليس كباقي النصوص الرحلية الأخرى، وقد شكّل بالفعل استثناءً وتفرّدا، كَسَرَ به صاحبه تلك الصورة العامة التي تقاسمتها النصوص الأخرى، موضوعا ومنهجا، و من بينها موضوع اهتمامنا، أي موضوع المرأة المغربية، فنص " الحسن الوزان" كان نصا دسما و غنيا بالمواضيع والمعطيات التي وقفت في غير ما مرة عند أدق التفاصيل والظواهر التي ميّزت حياة المرأة المغربية و صورتها في المجتمع المغربي، فهو نص تاريخي إثنوغرافي بامتياز، يفتح أمام الباحث والمهتم باب اكتشاف أنثربولوجية المرأة المغربية في بعدها التاريخي، ليكون على الأرجح النص الأوحد الذي تفرد بهذه الخاصية، مقارنة مع سابقيه أو حتى من أولئك النصوص الرحلية التي جاءت من بعده لرحالة مغاربة.

إذ ليس هناك من الرحالة من تحدث عن المرأة المغربية ووصف أحوالها، خاصة من طبقة العوام، كما فعل صاحب " وصف إفريقيا"،حيث خلّفَ متنا رحليا يزخر بتفاصيل هذه الفئة بعين ثاقبة، تتسلل داخل أوساط المجتمع سواء في المدن أو الأرياف، وفي مختلف النواحي، وبجميع فئاته، خاصة ما يرتبط بالحياة الاجتماعية، وما يعكس ذهنيات ونظرة المجتمع لعنصر المرأة.

فقد توقف "الحسن الوزان" في غير مرة في كتابه عند ما يرتبط بالمرأة المغربية، فوصفها وصفا دقيقا، لاسيما ما يرتبط بمظهرها وطبائعها، ونسوق هنا بعض الأمثلة مما ورد في هذا الشأن، فعلى سبيل المثال، ميز بين النساء المغربيات، فمن جهة هناك "سافرات الوجوه"[15] و"كريهات المنظر كالشياطين لباسهن أسوء من لباس الرجال (...) وحالتهن أقبح من حالة الحمير لأنهن يحملن على ظهورهن الماء الذي يسقينه من العيون، والحطب الذي يحتطبْنَه من الغابة دون أن يسترحن ولو ساعة من نهار"[16] وهناك من النساء من تذهب "خلف قطعان معزهم ليرعينها ويقمن بالغزل أثناء ذلك وليس فيهن واحدة وفية لزوجها"[17] وهنا كان الوزان يتحدث عن نساء جبل "ابن منصور".

ومن جهة أخرى فهناك نساء "بارعات الجمال، بيض متوسطات البدانة، في غاية الظرف واللطف"[18] مشيرا هنا إلى نساء منطقة أديكيس "بحاحا" يتحلين بحلي جميل من الفضة"[19] كما أنهن لطيفات أكثر منهن جميلات في بعض المناطق "كآيت عياض" بنواحي "تادلة"، يلبسن لباسا أنيقا ويتزين برشاقة بحلي الفضة وخواتم وأساور وغيرها من أنواع الزينة"[20].

ومن العادات الغريبة التي التقطناها ونحن نجول بين صفحات نص هذا الرحّالة، ما ذكره عن نساء جبل "مرنيسة" بإحدى مناطق الشمال الغربي للمغرب، إذ "إن كل امرأة أصابتها إهانة من زوجها مهما كانت ضئيلة، فرت إلى الجبال الأخرى تاركة أولادها، و تزوجت من رجل آخر، وهذا هو السبب الذي يجعل الرجال يحملون السلاح، وتكون بينهم مشاجرات دائمة، وإن جنحوا للصلح، فلا بد أن يدفع من تبقى المرأة عنده للزوج الأول ما أنفقه في زواجه"[21].

كما أشار الوزان إلى بعض المهام والوظائف التي كانت المرأة تضطلع بها، فنساء "أفزا" بنواحي تادلا، "ماهرات جدا في خدمة الصوف، يصنعن منه البرانس، والأكسية الفاخرة فيكسبن من المال أكثر مما يكسبه الرجال"[22] كما كانت النساء بالقرى و الجبال يقمن برعي الماشية و في فاس باعتبارها المدينة المركزية آنذاك، فقد تلجأ المرأة إلى امتهان الدعارة للحصول على مقابل مادي، وذلك في مكان مخصص لهذه الممارسة، حيث كانت هناك "دور عمومية تمارس فيها البغايا مهنتهن بثمن بخس، تحت حماية رئيس الشرطة أو حاكم المدينة"[23].

إذن؛ فنص " الحسن الوزان" قد اهتم بالمغاربة شكل كبير، وأفرد غالبية حديثه عن المغرب، وفي هذا الحديث، إفادات تاريخية – إثنوغرافية جد هامة حول المرأة المغربية وأنماط عيشها وعلاقاتها وكذا أدوارها ضمن المجتمع المغربي وفئاته، فكانت المرأة حاضرة في نصه، وخصّه بوصف دقيق، يمكن من خلاله تسليط الضوء على هذه الفئة، وبالتالي تفَوّقَ "الحسن الوزان" على غيره من الرحالة المغاربة في هذا الشأن، ولعل سر هذا التفوق يرجع إلى عدة عوامل، أبرزها تلك الظروف التي تواجد فيها هذا الرحالة، والتي ارتبطت

بأسره، و احتكاكه بالعالم الأوربي، وفي فترة جد هامة ومميزة، وهي عصر النهضة الأوربية، لذلك كتب "ليون الإفريقي" نصه بنظرة ودوافع تختلف عما كان لأقرانه من الرحالة المغاربة الآخرين، فاختلفت نظرته ومنهجه في تسجيل مشاهداته، هذا الاختلاف الذي يظهر جليا في المواضيع التي تناولها و الكيفية التي تم بها وصف المغاربة، فهي طريقة تعتمد لغة الأرقام و المعطيات الإحصائية، وكذا الوصف الإثنوغرافي الذي لا يخضع لقيود المرجعية الثقافية أو الدينية، بل كان وصفا أكثر تحررا وعمقا بالمقارنة مع ما جاء في كتابات الرحالة المغاربة الآخرين، وهو ما جعل من المرأة المغربية لها نصيبها الوازن في نصه الرحلي.

ختاما؛ فإن الحضور الباهت لموضوع المرأة المغربية ضمن مؤلفات الرحالة المغاربة، له ما يبرره، بالنظر إلى اهتمام الكثير من الرحالة كما هو الحال مع الرّحالة ابن بطوطة، بالمرأة من خارج المغرب، كما أن تهميش لهذه الفئة بالمطلق في كتابات بعض الرّحالة يرجع بالأساس إلى طبيعة تلك الرحلات، والقصد هنا بالأساس تلك الرحلات الصوفية والحجية، وما كان يؤمن به أصحاب هذه الرحلات من معتقدات إيمانية واهتمامات روحانية بالأساس، لذلك فالباحث في تاريخ المرأة المغربية قد لا تسعفه المتون الرحلية المغربية بل وحتى المشرقية، وبالتالي قد يختلف الأمر إن وجّه اهتمامه نحو مصادر رحلية أجنبية، والأوربية منها على وجه الخصوص، فسيجدها قد أولت اهتماما ملحوظا في ذكر ووصف أحوال وواقع المرأة المغربية، باعتبارها من الفئات التي كان الرحالة الأوربيون يتوقون إلى اكتشاف عوالمها، وتسليط الضوء عليها.

الهوامش:

[1] – هو محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن بوسف اللواتي، ولد في طنجة، من أسرة علمية تولى أغلب أفرادها منصب القضاء، وفي سن الثانية والعشرون قرر الحج إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، فكانت بداية أسفاره التي استغرقت حوالي التسعة و عشرون سنة، وتجول في مناطق متفرقة ومتنوعة من العالم، من آسيا و أوربا وكذا إفريقيا، قبل أن يعود إلى المغرب قاصدا فاس ليستقر بها حتى وفاته سنة 779هـ – 1377م. تاركا من ورائه توثيقا مفصلا لرحلاته، خلده في مؤلفه المعروف ب " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".

[2] – محمد المغيربي، **رحالة الغرب الاسلامي**، ترجمة عبد النبي ذاكر، دار السويدي للنشر، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2013، ص: 45.

[3] – شادي حكمت، **ابن بطوطة وصناعة أدب الرحلة**، رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، 2003، ص: 29.

[4] – ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تقديم ودراسة طلال حرب، بيروت، الطبعة الأولى، 1987، ص: 581.

[5] – ابن بطوطة، تحفة النظار، سابق، ص: 581.

[6] – نفسه، ص: 595.

[7] – ابن بطوطة، سابق، ص: 264.

[8] – نفسه، ص: 559.

[9] – نفسه، ص: 704.

[10] – نفسه، ص: 343.

[11] – عصمت دندش، **المرأة بتادلا من خلال كتب الرحلات في العصر الوسيط**، مقال ضمن **مجلة المناهل**، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، المغرب، العدد 44، يونيو 1994، ص: 145.

[12] – عبد القادر زمامة، **مع أبي سالم العياشي في رحلته إلى المشرق**، مقال ضمن **مجلة المناهل**، العدد 27، 1983، ص:156.

[13] – محمد المغيربي، سابق، ص: 37.

[14] – هو الحسن بن محمد الوزان الفاسي، ولد سنة 888هـ الموافق ل سنة 1483م، بمدينة غرناطة وهو المرجح عند الباحثين، وانتقل مع أسرته إلى فاس، ودرس هناك، تقلد عدة مناصب ومهام سياسية في عهد الدولة الوطاسية، ما مكنه من القيام برحلات داخل وخارج المغرب، إلى أن وقع أسيرا في يد القراصنة الإيطاليين وه عائد من سفره من تونس، و تمّ تقديمه هدية إلى البابا ليون العاشر في روما، فصار يدعى ب " يوحنا الأسد الإفريقي"، من أشهر كؤلفاته كتاب "وصف إفريقيا" وهو القسم الثالث من من كتاب الجغرافية العامة الذي ترجمه الوزان إلى الإيطالية.

[15] – الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الثانية،1983، ص: 97.

[16] – نفسه ، ص: 189.

[17] – نفسه ، ص: 330.

[18] – نفسه، ص:: 101.

[19]- نفسه، ،ص167.

[20]- نفسه، ص: 185.

[21]- حسن الوزان، سابق، ص: 334.

[22] - نفسه، ص:183 .

[23]- نفسه، ص: 247.